صـــــــــديـقــي

* الأزهر الصحـــراوي*

قصدتُ الحيَّ الجامعيَّ، وكانت حقيبتي الجلديَّة الكبيرة على ظهري ومحفظتي السّوداء القديمة في يدي، وكنت أُحسّ كأنّي نسيت القراءة والكتابة، فقد قضيتُ الصَّيف متسَكِّعًا بين أحياء العاصمة وشواطئ بنزرت وثنايا قريتي البائسة. حَطَطْتُ رحالي أمام المبيت الذي قضيتُ فيه ثلاث سنوات، وأعرف كلَّ ناحية من أنحائه وكلَّ بقيعة فيه، وتَرْبطني علاقةُ مودّةٍ بعَمَلته وحرّاسه.

وقفتُ أمام الباب باشّاً وجعلتُ أنادي بصوت خفيض: «عمّ الطّاهر، يا عمَّ الطاهر!» لم يكن بعيدًا عنّي. كان جالسًا على كرسيّ خشبيّ وهو يَدْفن رأسَه بين صفحات جريدة **الصّباح**. قلتُ في نفسي: «لعلّ المسكين تقدّم به العمر وثقل سمعُه.» رفعتُ صوتي بالنّداء، فلم يجبني وكأنّه يتجاهلني. ولمّا دفعتُ البابَ وهممتُ بالدخول، رمقني بنظرة مؤذية وكلّمني قائلاً: «ماذا تريد؟ وإلى أين تقصد؟» فقلتُ مشدوهًا والابتسامةُ قد شُلّت على شفتيّ: «إلى المبيت!» فطلب بطاقة الإقامة بالحيّ، فقلتُ: «ليست معي...» وتابعتُ مُتعجِّبًا: «منذ متى أصبحتم تتعاملون بهذا القانون؟» فقال حانقًا وهو يَدْفعني إلى الخارج: «الدخول ممنوع...» فقلتُ متحدِّيًا وأنا أجرّ حقيبتي على البلاط : «سأدخل. لا يُوجد ما يَمْنع طالبًا من الدّخول إلى الجامعة أو المبيت.» وقف أمامي كالحاجز المنيع وقد اسودَّ وجهُه وصار شديدَ القبح وهو يُردّد: «تُريدُ أن تطيِّر خبزتي؟ طيَّر اللَّهُ خبزتَك!» فتراجعتُ قليلاً ورفعتُ صوتي وأنا أتوجّه إلى الزُّملاء الطلبة الذين كانوا يقفون بأعداد كثيرة على مقربة من باب المبيت يَنْتظرون قدومَ الحافلة: «يا زملاء... يا زملائي الطّلبة... إنّها لبادرةٌ خطيرةٌ تَشْهدها الجامعةُ ومبيعاتُ الجامعة. إنّ...»

قطع عليّ كلامي ثلاثةُ رجال أشدّاء. أمسك أحدُهم بتلابيبي، وسلسلني الثّاني، ودفعوني أمامهم، والطلبةُ يتفرّجون متهامسين وكأنّ المسألةَ لا تعنيهم. ثمّ عاد ثالثُهم فرمى بحقيبتي ومحفظتي خارج الباب، بعدما قَلَّبَ محتوياتهما. وكانت أنظارُ الطلبة تَرْمقني، فيداهمني خجل مرّ وإحساس مزيج من احتقار وعزّة. اقتادوني إلى سيّارة شرطة كانت ترابط هناك. ولمّا أَدْخلوني كَسَعني أحدُهم، وصفعني آخر، وضحك عليّ البقيّة، وقال كبيرُهم بلهجة صارمة: «عليك أن تذوب في أسرع وقت، وإنْ لمحتُك هنا ثانيةً أو سمعتُ زعيقك... لك أمّك.» دفعوني خارجًا، فانطلقتُ محزونًا صوب حقيبتي، فوجدتُ صديقي رياضًا قد أخذها إلى المحطّة. لم يَهنْ عليه أن يَتْركها هنا ويمضي؛ فَعَلَ ذلك لأنَّه صديقي الذي فَتَحتُ له غرفتي شهورًا طويلةً في الأعوام الخوالي، أيّامَ كانت غرفتي بالمبيت كالوكالة الشعبيّة مفتوحةً للقريب والبعيد، لم أَقضِ فيها ليلةً مرتاحَ البال قرير العين. فأحيانًا يفاجئني ضيوفٌ قادمون من مبيتات أخرى أو من جهات بعيدة، فأجعلُ الغطاءَ فراشًا يتَّسعُ لاثنين وأكثر، ويَخْجل شريكي في الغرفة فيترك لنا سريرَه وأغطيتَه ويَقْصد بعضَ معارفه هناك، فأوضّب كلّ الغرفةِ للضيوف. وكم مرّةٍ قاسمني صديقي رياض السّريرَ الضيّقَ وننما نومةَ «الكوّال» تحايلاً على ضيق السّرير! وكم مرّةٍ تقاسمنا القمصانَ والسّراويلَ والمهمّات العسيرة! لقد حزّ في نفسه أن يترك حقيبتي ومحفظتي مرميَّتَيْن وأنا في سيّارة الشرطة، فمكث هناك يتابع الأمرَ من بعيد وينتظرني، ولمّا وصلتُ اعترضني وسلّم عليّ.

لم تمضِ دقائقُ حتى تحرّكت الحافلةُ وفتحت بابها الخلفيّ فصعدتُ متثاقلاً. وكان بعض الطلبة يَنْظرون إليَّ مُواسين، فأدير وجهي ترفُّعًا وأَدْنو من رياض الذي كان يُحدّثني عن أمور كثيرة مستجدّة ويمازحني ويسألني عن الأصدقاء. اقتربتُ منه وقلتُ له صادقًا: «يا صاحبي لا أعرف كيف سأعيش هذا العام. ليس عندي بيتٌ ولا أَمْلك مالاً، فأين أقيم؟ ومن أين آكل وأُدخِّن؟ ويَبْدو أنّنا لن نَنْشغل بالسياسة هذا العام. أليس من الأجدى أن أعود إلى قريتي لأرعى شياهَ أبي حتى يجيء موعد الامتحان؟» فقال لي ضاحكًا: «لا تنكسرْ سريعًا هكذا. ستستمرّ السياسةُ هذا العامّ، وسنتدبّر لك مسكنًا...»

* ـ كاتب من تونس.

نزلنا قرب حيّ شعبيّ من تلك الأحياء المحيطة بالعاصمة، وسلكنا أنهجه، وانعطفنا مع منعطفاته المتعدِّدة، ونحن نتناوب على حمل الحقيبة، حتى توقّفنا أمام بيت صغير يُشْبه كلَّ البيوت المحيطة به. ولمّا دخلنا رمى رياض بالحقيبة فوق حصير وتمدّد على إحدى الحشيّتين المرميّتين عليه بلا نظام. أمّا أنا فقد رحتُ أتعرّف على البيت: كان صغيرًا مغلقًا، لا تَعْرف الشمسُ إليه سبيلاً، به غرفتان ضيّقتان، ومطبخٌ صغيرٌ واطئ جدرانُه مخرَّبةٌ، وحمّامٌ في العراء بلا سقف تَسْكنه رائحةٌ قذرةٌ مؤذية. فأسْرعتُ إلى حيث صديقي، وتمدَّدتُ إلى جانبه على الحشيّة الأخرى. لامستْ قدمي الخزانةَ الحديديّة التي تَنْتصب أمامي، فانفرج بابُها المُهترئ وأطلّت من جزئها الأسفل سراويلُه وقمصانُه ومراويلُه وهي مكوّمةٌ فوق بعضها البعض. أردتُ إغلاق ذلك الباب بقدمي الأخرى فإذ به يَسْقط فيصيب ركبتي ويُحدث ضجيجًا، فانتفض صديقي من غفوته ووقفنا معًا. أخذتُ أُصلِحُ الباب وأردّه إلى وضعه الأوّل، وانصرف صديقي إلى المطبخ لإحضار العشاء.

كان جزءُ الخزانة الأعلى مخصَّصًا للكتب وقد اندسّت بينها جملةٌ من الوثائق والرّسائل، وعليها مباشرةً قارورةُ عطر فارغة، ومنشفةٌ صغيرة زرقاء، وعلى يمينها كرسيّ خيزرانيّ أَعْرج وُضِعَتْ تحت قائمته الأماميّة القصيرة قطعةٌ من الخشب لتَرْفع من هبوطه وتحدُّ من انعراجه. وفوق الكرسيّ تلفاز صغير من نوع «صوني،» وبين قوائمه تَرْقد آلةُ تسجيلٍ عليها بوقٌ صغير يَنشدّ إليها بسلكيْن معدنيَّيْن. وعلى يسارها، حيث يمتدّ الحصير، بطانيّتان من الصّوف الخالص، ومخدّةٌ قذرة، وملاحفُ بيضاء قد تآكلتْ أطرافُها وعليها دوائرُ صغيرة قذرة.

ناداني رياض قائلاً: «هاتِ الخبز، فهو في تلك الناحية من الغرفة الأخرى. وهاتِ وريْقات جريدة لنفرشها للصّحون. وهيّا لنتعشّى.» قلت وأنا أتخطّى عتبةَ الغرفة الثّانية: «ألم تتعلَّم احترام الورق؟ عاشَرْتَه عشرين عامًا ولا تشفق عليه يا وغد؟!» فقال لي ضاحكًا: «بعضُ الجرائد لا تَصْلح إلاّ لذلك، وأنا لا أَقتنيها إلاّ لهذه المسألة وأمثالها.» كانت الغرفة الثّانية أضيقَ من الأولى، بها مكتب صغير، وكرسيّ قديم، وكتُبٌ مرميّةٌ على بلاط الغرفة. قربها أحذيةٌ قديمة. وفي أعلى الجدار الأيمن عُلِّقتْ صورةُ «سليمان خاطر» وهو يَرْفع بندقيّته. وفي الجدار المُقابل صورةٌ لماركس بلحيته الكثّة، وإلى جانبها صورةُ لينين وهو يَنْظر بعينَيْن حزينتيْن. انحنيتُ أقلّب بعضَ الكتب. تصفّحتُ **الإنسان أثمن رأس مال**، و**تاريخ الأقطار العربيّة**. رميتُ بالكتاب لمّا سمعتُه يستحثّني. فحملتُ الخبزة الموضوعة فوق المكتب وبعضَ أوراق جريدة كانت هناك. وقصدت الغرفة الثانية. فوجدتُه يُمْسك بصحنيْن من الألمنيوم فيهما سمكُ السّردين وهريسة وزيتُ زيتون. بَسَطْتُ الورقات فوق الحصير لنَحفظه من الفتات والزّيت. وجلسنا نتعشّى. كنتُ شديدَ الجوع، إلاّ أنّ الأكلة الرّديئة لم تشجّعْني على الاستزادة. أسكتُّ صراخ أمعائي، ثمّ انقطعتُ، واتّكأْتُ بمرفقي على طرف الحشيّة، وجعلتُ أُدخّن وأَنْفث الدّخان في سماء الغرفة.

كان الكلام الذي قطَّره الشرطيّ في أُذني يدمِّر قدرتي على التفكير. وكان الوضع الجديد في الجامعة يُقطّع قلبي. فقد أَطْبق قُبحُ النظام على جمال الفوضى، وهُدمت قلاعُ العشّاق والفقراء، وتبخّرتْ أحلامُ الأشقياء لمّا سقطت الجامعةُ في يدهم. وكنت أعقلن حقدي على أبي لأنّه لم يَمْنحْني إلاّ مبلغًا زهيدًا وهو يقول لي بجفوة كبيرة: «لعن اللّه أباك الكلب... اِذْهب إلى الحاكم فهو أبوك.» فقلتُ يومها وكأنّي أحدّث نفسي: «كفاني تصاغرًا واستعطافًا، فهو أكثر تبلُّدًا من حمار...» وكان رياض يحادثني متعمّدًا إضحاكي فيُذكّرني بأحداث ماضية وبنوادر ضيوفي في المبيت وبعمليّات الإصلاح الزراعي التي كنّا نُنفِّذُها في مزارع الإجّاص والخوخ التي تقع على أطراف كليّة «منّوبة،» فأتذكّر الغنائم التي كنّا نغنمها والأسواقَ التي كنّا نُحْدِثها، إذ كنّا أيّام الشدّة نقايض الإجّاصةَ بتذكرة غداء أو عشاء، والتُّفاحةَ بسيجارة.

انقضى بعضُ الليل فدنا رياض منّي وقال: «يا صديقي لي مهمّةٌ تَستدعي غيابي مدّة قد تطول أو تَقْصر، فعليك أن تحلّ محلّي في البيت وتقوم مقامي في العمل. وغدًا سآخذك إلى ربّ المدجنة لتعوّضني في العمل ليلاً حتى أعود. يجب أن تُوَفِّق بين الدِّراسة نهارًا، وتوفيرِ متطلّبات الكراء والأكل والتّدخين ليلاً.» فقمتُ في الحال أُعانقه وأُقبّله وأقول له: «لقد مَدَدتَ في عمري لأحارب الإمبرياليّة...» فأضاف: «والصهيونيّة والكومبرادور والإقطاع.»

كان نظام العمل في المدجنة يحتِّم عليّ أن أباشره في الثامنة ليلاً وأن أُتِمَّه في الخامسة صباحًا. وكان الضوء الليليّ الكثيف يضايقني، والرّائحة تُعذِّبني كثيرًا. وما كاد الأسبوع الثاني يمرّ حتى خارت قواي وساءت أحوالي، وحرصتُ على التّوفيق بين الدِّراسة والعمل كما فعل رياض من قبل، وأقنعتُ نفسي بأنّي اكتملتُ وصرت مناضلاً حقيقيّاً: فأنا في اللّيل عاملٌ كادحٌ أعلف الدّجاجَ، وفي النّهار مثقّفٌ ثوريّ أناضل في صفوف الطلاّب. كنت أتابع كلّ التحوُّلات داخل الجامعة، وذاتَ يوم كتبتُ خطابًا سياسيّاً وعلّقتُه على جدار المكتبة قاصدًا تثويرَ الطلاّب. فلم أر أحدًا عطف عليه وقرأ ما فيه، فتملّكني حزنٌ وبكيتُ بالقلب وفكّرتُ في هجر الجامعة؛ فأنا مزاجيّ أحيانًا أتصرّف وكأنّ الجامعة امرأتي متى عَصَت أمري هجرتُها في الفراش. وفي النهاية تركتُ الأمرَ للأيّام ووجّهتُ همّي للعمل رغم طعنات الرّائحة، وعذابِ الأضواء، وقبحِ أصوات الدّجاج، ووحشةِ اللّيل.

كنتُ أحيانًا أضع العلف جانبًا، وأقف على كرسيّ وأخطب في الدّجاج: «يا أيُّها الدّجاج الأبيض، يا عديم الأصل، يا نسل إبليس، يا صنعة المخابر والآلات. إنّ ديكًا من ديكةِ مرو أشرفُ منك جميعًا وأنفعُ للإنسان من لحمك المتورّم القذر...» وأَنْزل خجلاً من نفسي، فأشرع في توزيع العلف.

انقَضَتْ عطلةُ الشتاء ولم يعد رياض، فساءت حالتي كثيرًا وانقطعتُ عن العمل، وقلت: «رزقي على اللّه. سأتدبّر شغلاً آخر أقلّ بُؤسًا من هذا، وسأقول لصديقي عند عودته إنّي مرضتُ ولازمتُ الفراش فهل أَقْدر على دفع المرض؟!» أفقتُ ذات صباح فقصدتُ الجامعة. ولمّا دخلتُ تبادلتُ مع بعض الواقفين على الأبواب نظرات جارحة، ثمّ جُلْتُ في ساحاتها وكأنّي أتفقّد أشياءها، وقصدتُ المشرب فاقتنيتُ قهوة وجلستُ على العشب الأخضر النّاعم مسندًا ظهري إلى جذع شجرة الرّند وجعلتُ أدخّن بنَهَم فينْبعث الدخّان من خياشيمي وأتخيّل الطلاّب والطالبات الذين تعجّ بهم السّاحة شياهًا ومعزًا، والكلّيةَ بأسرها ضيعةً أَمْلكها فأذبح وأبيع وأُصلح من أمري. ولمّا عدتُ مساءً وجدتُ صاحبَ المنزل واقفًا أمام الباب، فخشيتُ على نفسي من التشرّد والضّياع. وما إنْ دنوتُ منه حتّى بادرني قائلاً: «هاتِ المفتاحَ يا ولدي. انتهى بيننا الماءُ والملح. سامحك اللّه يا رياض يا ولدي.» فقلتُ له متزلّفًا: «أنت في مقام والدي وسأحدّثك صادقًا...» فقاطعني غاضبًا: «لا حديث بيننا، لا تَعْرفني ولا أَعْرفك. هاتِ المفتاح.» فقلتُ له متودِّدًا متذلِّلاً: «أنا في مقام ابنك. اسمعْني وسأعطيك المفتاح. ها إنّنا في آخر الشّهر. أَمْهلني يومَيْن لأتدبّر معلومَ الشّهر الفارط ومعلومَ الماء والكهرباء. الصّباح رباح. سأتدبّر الأمر غدًا.» فقال لي وهو يهمّ بالذهاب: «عليك أن تَدْفع الكراء مسبقًا أو تُخْلي البيت...»

بِتُّ ليلتَها أفكّر في بيع التّلفاز أو رهنِه لإسكاته. وفي غبش الفجر قصدتُ سوق «سيّدي عبد السلام،» وعلى كتفي البطّانيّةُ الصّوفيّةُ، وفي يدي حقيبتي وداخلها التّلفاز. ولمّا وصلتُ انتحيتُ ناحيةً، ونزعت السّاعةَ من معصمي، وعرضتُ سلعتي: التّلفاز فوق الحقيبة، والبطّانيّة على كتفي، والسّاعة تتدلّى من بين أصابعي. مرَّ بي بعضُ الطّلبة فلم يكترثوا لحالي وأنا أدفن رأسي في طربوش المعطف. وحدجني بعضُ الباعة بنظرة هازئة. اقتربت امرأةٌ بدينةٌ وجعلتْ تتلمّس البطّانيّة وتقلّبها بين يديْها. وكنتُ قد سَعَّرْتُها بعشرين دينارًا، ولمّا ألحّت عليَّ قَبِلْتُ بسبعة عشر وأنا أتلفّت المبلغ وأقول: «واللّه برأسمالها، وبيتِ اللّه لم أربحْ فيها مليمًا واحدًا.» ولم تمضِ ساعةٌ حتّى يسّر اللّهُ أمري فبعتُ التّلفاز بسبعين دينارًا، وأعدتُ السّاعة إلى معصمي قائلاً: «لم يحن وقتها بعد.»

عدتُ إلى البيت، وكنتُ أثناء العودة أوضّب كذبة متماسكة أُقْنع بها صديقي. سأقول له: «زارني ضيفٌ من ضيوفنا القدامى فتركتُه نائمًا وقصدتُ العمل، ولمّا عدتُ مع الفجر لم أجد البطّانيّة والتّلفاز.» وسأقول له: «لا تحزنْ يا صديقي، كلّ شيء يهون وكلّ شيء ممكن.» أنا واثق من أنّه سيعتبر المسألة عاديّة وسيربّت على كتفي ويقول: «لا تَشْغلْ نفسكَ، بسيطة...» فهو يَكْره التّلفاز ويَعْتبره أخطرَ جهاز حُكْم تُوَجّه من خلاله السُّلطاتُ الجماهيرَ الشعبيّة وتلوي رقابها. لقد أرحتُكَ من هذا المَكْسب الخطير يا صاحبي. حتّى الغطاء فإنّه مكوّم في تلك الزّاوية ولا تحتاجه إلاّ أيّام البرد. سيصدّقني... صديقي رياض طيّب وبريء ونظيف جداً. لقد انتشلني من الضّياع. فأَدْخلني بيته وآواني وائتمنني على ما فيه فخرّبتُه وعثتُ فيه فسادًا ولم أَحْفظ الأمانة، فلعنة اللّه عليّ. لكنّني من أين سأنفق؟ وبم أشتري السجائر؟ ومن أين أسدّد معلومَ الكراء لأحتفظ بالبيت وما فيه؟

ما إنْ تخطّيتُ عتبة الباب حتّى ابتدرني صاحبُ البيت قائلاً: «هاتِ المفتاح يا ولدي.» فاتّجهت إليه وأنا أعدّ الورقات النقديّة التي أخرجتُها من جيب المعطف. سلّمته سبعين دينارًا وعُدتُ دون أن أكلّمه. ولمّا دخلتُ تمدّدتُ على إحدى الحشيّتين وداهمتْني أفكار سوداء، وأحسستُ برغبة جامحة في البكاء، وتخيّلتُ رياضًا أمامي وجعلتُ أقول له وأنا أحدّث نفسي: «لا تؤاخذني يا صديقي. ابتسمْ بربّك، ابتسمْ. أنت تَعْرفني صعلوكًا وتَحْتملني لأنّي في نظرك فلاّحٌ، رجولتُه رأسُ ماله لا يُمْكن أن يلوّثها أو يلطّخها بالخيانات. أنت تَعْرفني يا صديقي كيف أُدافع عن أفكارنا بضراوة كما لو أنّي أدافع عن أرضنا أو عرضنا. لا تحاسبْني، فإذا لم تَعُدْ قريبًا فقد أبيع كلّ شيء: آلة التّسجيل، والبطّانيّة المتبقّية، والكرسيّ الأعرج والسّليم، والمكتب، والخزانة. لكنّي لن أبيعَ كتبك. سأجوع ولا أبيعها. سأرصفها بعناية وتبويب في حقائبك، وأدسّ بينها تلك الصُّورَ التي تزيّن جدرانَ غرفتك. لا تغضبْ يا رياض. سأعوّضك يا صاحبي عندما أتخرّج وأشتغل. لم يعد يَفْصلنا عن التخرُّج سوى أشهر... أشهر قليلة وأشتغل يا صديقي.»

لم أَعْرف كيف داهمني النُّعاس أو كيف انتشلني النوم من حرائق الأسئلة وتهويمات الخيال. فلقد نمتُ بملابسي. نمت كبائسٍ إلى الصّباح. حبستُ نفسي في البيت أيّامًا ألومها وأقسو عليها، وعشت عيشةَ الزهّاد، طعامي خبزٌ وماءٌ، كي لا أبذّر ما بقي عندي من مال. إلاّ أنّي صرت مدخّنًا نهمًا وقارئًا نهمًا. بقي عندي أربعةُ دنانير، فقلتُ في نفسي: «أذهب اليوم إلى الكليّة أتفقّدها وأنفق هناك ما تبقّى من مالي.» أخذتُ معي ديوان أمل دنقل ولمّا وصلتُ اقتنيتُ قهوة من المشرب وجلستُ وحيدًا على العشب الأخضر أدخّن وأرتشف القهوة وأتصفّح الديوان. انشغلتُ بقصيدته «صلاة،» ثم فاجأتْني قصيدةُ «لا تُصالحْ،» وخُيِّل إليَّ أنّ الشّاعر يَقْصدني ويَعْنيني، فأغلقتُ الكتاب وشرعتُ أقول في نفسي: «عليّ أن أعجّل بأخذ بعض سراويله وإحدى الحشيّتين وذلك الكرسيّ السّليم إلى السّوق لأعيش الأيّام القادمة.» فاجأني مراد، زميلي في الفصل، بجلوسه حذوي دون أن يسلّم أو يتكلّم، ورمى إليّ بجريدة عربيّة كان قد استلّها من محفظته. فجعلتُ أتصفّحها وأنا أقول له: «أهلاً بهادم اللّذات.» استقرّ نظري على صورة رياض بوجهه الشّاحب وعينَيْه المتوقّدتيْن وكأنّه يتوعّدني. وفوق الصورة كُتب بخطّ غليظ : «عمليّة الطيبة الاستشهاديّة...» لم أصدّق نفسي وأنا أتابع باندهاشٍ فظيعٍ التّفاصيلَ الدّقيقةَ أسفلَ الصّورة. قرأت:

«رياض بن جماعة، طالب عربيّ من تونس، كنيتُه أبو ضرار، يترك مقاعد الدّراسة ويلتحق بالمقاومة ويقود عمليّة فدائيّة ضدّ دوريّة صهيونيّة في منطقة الطّيبة بجنوب لبنان على بعد كيلومترَيْن من فلسطين المحتلّة ويُستشهد يوم ١٩ جانفي ١٩٩٥.»

صحتُ صيحةً منكرة مدويّة اهتزّتْ لها أرجاءُ الكليّة. وتداكك عليّ الطلاّبُ يَسْتفسرون، واحتشد حولي خلق كثير، وأسرع عميدُ الكليّة يَنْفخ في البوق يأمرنا بالتفرّق ويُحذّرنا من البوليس المتأهّب خلف الأبواب.

تونس